

٧ - في الحديث المحمدي

للأستاذ محمود أبو رية

ضرر روايت الحديث بالمعنى للدين :

لما كانت احاديث النبي (ص) قد جاء نقلها بالمعنى - كما بينا من قبل - وأنهم قد أباحوا لرواياتهم أن يزيدوا فيها ، ويختصروا منها ، وأن يقدموا ويؤخروا في ألفاظها - بل ما سوغوه من قبول الملحون منها - لما كان الأمر قد جرى على ذلك، فقد نشأ منه ولا جرم - وبخاصة بسبب نقل الحديث بالمعنى - ضرر عظيم قال العلامة الجزائري في توجيه النظر (١)

بعد البحث والتتبع تبين أن كثيرا ممن روى بالمعنى قد قصر في الأداء، ولذلك قال بعضهم : ينبغي سد باب الرواية بالمعنى لئلا يتسلط من لا يحسن ، ممن بظن أنه يحسن ، كما وقع لكثير من الرواة قديما وحديثا . وقد نشأ عن الرواية بالمعنى ضرر عظيم حتى عد من جملة أسباب اختلاف الأمة . قال بعض المؤلفين (٢) في ذلك في مقدمة كتابه : إن الخلاف قد عرض للأمة من غانية أوجه ، وجميع وجوه الخلاف متولدة منها ومتفرعة عنها (الأول) منها اشتراك الألفاظ واحتمالها للتأويلات الكثيرة (الثاني) الحقيقة والمجاز (الثالث) الأفراد والتركيب (الرابع) الخصوص والمعموم (الخامس) الرواية والنقل (السادس) الاجتهاد فيما لا نص فيه (السابع) النسخ والنسوخ (الثامن) الإباحة والتوسيع . وقال في باب الخلاف المارض من جهة الرواية والنقل : هذا الباب لا تم الفائدة التي قصدناها منه إلا بمعرفة المال التي تمرض للحديث فتحيل معناه ، وربما أوهمت فيه معارضة بعض لبعض و بما ولدت فيه إشكالا يحوج العلماء إلى

(١) ص ٣٣٧ - ٣٤٠ (٢) ظللت نعت عن هذا المؤلف حتى وجدنا أنه أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البليوسي الأندلسي التوفي سنة ٥٢١ هـ وهذا الكلام في كتابه (الإنباف في التنبه على الأسباب التي أوجبت الاختلاف بين المسلمين من آرائهم) وقد أتينا بما نقله العلامة الجزائري لأنه أشبه القول في هذا الأمر بما نقل عن أئمة كبار غير البليوسي

طلب التأويل البعيد ، فاعلم أن الحديث المأثور عن رسول الله (ص) وعن أصحابه والتابعين لهم ، تمرض له ثمانى علة ، أولها فساد الإسناد ، والثانية من جهة نقل الحديث على معناه دون لفظه ، والثالثة من جهة الجهل بالإعراب ، والرابعة من جهة التصحيف ، والخامسة من جهة إسقاط شيء من الحديث لا يتم المعنى إلا به ، والسادسة أن ينقل الحديث وينقل السبب الموجب له ، أو بسط الأمر الذي جر ذكره ، والسابعة أن يسمع الحديث بعض الحديث ويفوته سماع بعضه ، والثامنة نقل الحديث من الصحف دون لقاء الشيوخ (٣)

وقد أحيينا أن يقتصر مما ذكر على ما هو أسس مما نحن بصدده (الملة الأولى) وهي فساد الإسناد . وهذه الملة هي أشهر الملل عند الناس حتى أن كثيرا منهم يتوهم أنه إذا صح الإسناد صح الحديث ! وليس كذلك فإنه قد يتفق أن يكون رواية الحديث مشهورين بالمدالة معروفين بصحة الدين والأمانة غير مطمئنين عليهم ولا مستتراب بتقديهم ويمرض مع ذلك لأحاديثهم أعراضا على وجوه شتى من غير قصد منهم إلى ذلك . والإسناد يمرض له الفساد من أوجه : منها الإرسال وعدم الاتصال ، ومنها أن يكون بعض رواياته صاحب بدعة أو منهما بكذب وقلة ثقة ، أو مشهورا ببطله وغفلة ، أو يكون متمصبا لبعض الصحابة منحرفا عن بعضهم ، فإن كان مشهورا بالتمصّب ثم روى حديثا في تفصيل من يتمصّب له ولم يرد من غير طريقة لزم أن يستتراب به ، وذلك أن إفراط عصية الإنسان لن يتمصّب له وشدة محبته يحمله على اقتفال الحديث وإن لم يتمصّب له وغير بعض حروفه . ومما يبيح على الإستتراب بنقل الناقل أن يعلم منه حرص على الدنيا وتهاقت على الاتصال بالمعرك ونيل المسكينة والحظوة عندهم . فإن من كان بهذه الصفة لم يؤمن عليه التغيير والتبديل والافتعال للحديث والكذب حرصا على مكسب يحصل عليه (٤)

(٣) لا يصح أن يعد ذلك من علة الحديث . فقد ذهب الفقهاء كافة إلى أنه لا يتوقف العمل بالحديث على سماعه . وقال أبو إسحاق الأسترابيني الإجماع على جواز النقل من الكتب المتعددة . وقال الطبري من وجد حديثا في كتاب صحيح جاز له أن يرويه ويحتج به . وكذلك قال الزين عبد السلام وغير (٤) سفين سائر أسباب الرضع في الكلمة التالية إن شاء الله

وإن أحببت أن تعرف مقدار ما قد تؤدي إليه الرواية بالمعنى فسيكتفيك أن تنظر في الحديث الذي انفرد بإخراجه مسلم في صحيحه من رواية الوليد بن مسلم قال : حدثنا الأوزاعي عن قتادة أنه كتب إليه يخبره عن أنس بن مالك أنه حدثه فقال : صليت خلف النبي (ص) وأبي بكر وعمر وعثمان فكانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم في أول قراءة ولا آخرها . ثم رواه من رواية الوليد عن الأوزاعي أخبرني إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمع أنما يذكر ذلك . روى مالك في الموطأ عن حميد عن أنس قال : صليت وراء أبي بكر وعمر وعثمان فكلمهم كان لا يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم ، وزاد فيه الوليد بن مسلم عن مالك : صليت خلف رسول الله (ص) وقد أعل بعض المحدثين الحديث المذكور وقالوا : إن من رواه باللفظ المذكور قد رواه بالمعنى الذي وقع في نفسه ، فإنه فهم من قول أنس : كانوا يستفتحون بالحمد لله رب العالمين ، أنهم كانوا لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم فرواه على ما فهم وأخطأ ، لأن مراد أنس بيان .. أن السورة التي كانوا يفتتحون بها من السور هي الفاتحة ، وليس مراده بذلك أنهم كانوا لا يذكرون بسم الله الرحمن الرحيم ! فانظر إلى ما أدت إليه الرواية بالمعنى على قول هؤلاء حتى نشأ بذلك من الاختلاف في هذا الأمر المهم ما لا يخفى على ناظره . وقال ابن الصلاح في الأحاديث الواردة في الصحيح المتعلقة بدخول الجنة بمجرد الشهادة مثل حديث : من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة ، وحديث من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله حرم الله عليه النار ، وحديث لا يشهد أحد أنه لا إله إلا الله وأني رسول الله فيدخل النار أو تطعمه : يجوز أن يكون ذلك اقتصاراً من بعض الرواة نشأ من قصيره في الحفظ والضبط لا من رسول الله (ص) بدلالة مجيئه تاماً في رواية غيره ، ويجوز أن يكون اختصاراً من رسول الله فيما خاطب به الكفار عبدة الأوثان الذين كان توحيدهم لله مصحوباً بمئات ما يتوقف عليه الإسلام ومستلزماً له

واعلم أن الرواية بالمعنى قد أحس بضررها كثير من العلماء وشكروا منها على اختلاف علومهم ، غير أن معظم ضميرها كان في الحديث وللفقه العظيم أمرها . وقد نسب لكثير من العلماء

وقد روى أن قوماً من الفرس واليهود وغيرهم لما رأوا الإسلام قد ظهر وعم ، ودوخ وأذل جميع الأمم ، ورأوا أنه لا سبيل إلى مناصبته رجعوا إلى الحيلة والمكيدة فأظهروا الإسلام^(٥) من غير رغبة فيه ، وأخذوا أنفسهم بالتمهيد والتشفيق . فلما حمد الناس طريقهم ولدوا الأحاديث والمقالات وفرقوا الناس فرقا . وإذا كان عمر بن الخطاب يتشدد في الحديث ويتوعد عليه^(٦) والزمان زمان والمصحابة متوافرون ، والبدع لم تظهر والناس في القرن الذي أتى عليه رسول الله (ص) ، فما ظنك بالحال في الأزمنة التي ذهبا وقد كثرت البدع وقلت الأمانة . . .

(العلة الثانية) وهي نقل الحديث على المعنى دون اللفظ بعينه ، وهذا باب يمتلئ التلظ فيه جدا ، وقد نشأت منه بين الناس شجوب شنيعة ، وذلك أن أكثر المحدثين لا يراعون ألفاظ النبي (ص) التي نطق بها ، وإعما يتقلون إلى من يمدم معنى ما أراده بألفاظ أخرى ، ولذلك الحديث الواحد في المعنى الواحد يرد بألفاظ شتى ولفظ مختلفة يزيد بعض ألفاظها على بعض ... روجه التلظ الواقع من هذه الجهة أن الناس يتناضلون في صورهم وألوانهم وغير ذلك من أمورهم وأحوالهم فربما اتفق أن يسمع الراوي الحديث من النبي (ص) أو من غيره فيتصور معناه في نفسه على غير الجهة التي أرادها ، وإذا عبر عن ذلك المعنى الذي تصور في نفسه بألفاظ آخر كان قد حدث بخلاف ما سمع من غير قصد منه إلى ذلك ، وذلك أن الكلام الواحد قد يحتمل معنيين وثلاثة ، وقد تكون فيه اللفظة المشتركة التي تقع على الشيء ؛ وضده ففي مثل هذا يجوز أن يذهب النبي (ص) إلى المعنى الواحد ، ويذهب الراوي عنه إلى المعنى الآخر ، فإذا أدى معنى ما سمع دون لفظه بعينه كان قد روى عنه ضد ما أراده غير طامد ، ولو أدى لفظه بعينه لأوشك أن يفهم منه الآخر ما لم يفهم الأول ، وقد علم (ص) أن هذا سيرض بدمه فقال محذرا من ذلك : نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها وأداها كما سمعها فرب مبلغ أوعى من سامع . هـ

(٥) مثل كتب أخبار روم بين منه وغيره
(٦) أرجح إلى العدد ٩٣٠ من الرسالة

الأعلام أقوال بعيدة عن السداد جدا اتخذها كثير من خصومهم ذريعة للظن فيهم والإذراء بهم ثم تبين بعد البحث الشديد والتتبع أنهم لم يقولوا بها، وإنما نشأت نسبتها إليهم من أقوال رواها الراوي عنهم بالمعنى فقصر في التعبير عما قاله فكان من ذلك ما كان ..

وقد تعرض العلامة النحرير نجم الدين أحمد بن حمدان الحراني الحنبلي للضرر الذي نشأ من الرواية بالمعنى في مذهبه فقال في آخر كتاب صفة الفتى في باب جملة لبيان عيوب التأليف وغير ذلك يعرف الفتى كيف يتصرف في القول، ويقف على مراد القائل بما يقول، ليصح نقله المذهب، وعزوه إلى الإمام أو إلى بعض من إليه ينسب « اعلم أن أعظم المحاذير في التأليف النقلى إهمال نقل الألفاظ بأعيانها والاكتفاء بنقل المعاني مع قصور الناقل عن استيفاء مراد التكلم الأول بلفظه، وربما كانت بقية الأسباب مفرقة عنه، لأن القطع بمحصول مراد التكلم بكلامه أو الكاتب بكتابته مع ثقة الراوي تتوقف على انتفاء الإضمار والتخصيص والنسخ والتقديم والتأخير والاشتراك والتجاوز والتقدير والنقل والمرض العقلي، فكل نقل لا يؤمن منه حصول بعض الأسباب لا تقطع بانتفاؤها فمن ولا الناقل، ولا نظن عدمها ولا قرينة تنفيها ولا نجزم فيه بمراد التكلم، بل ربما ظنناه أو توهمناه - ولو نقل لفظه بعينه وقرائنه وتاريخه وأسبابه اتقنا هذا المحذور أو أكثره .. » (٧)

ضرر الرواية بالمعنى منه الناهية القوية والبوغية:

هذا بعض ما قالوه في ضرر رواية الحديث بالمعنى في الأمور الدينية، أما ضررها من ناحية اللغة والبلاغة فقد بينته نايبة الأدب وحيمة العرب مصطفي صادق الرافعي بقوله رحمه الله (٨)

« ليس كل ما يروى على أنه حديث يكون من كلام النبي (ص) بألفاظه وعبارته، بل من الأحاديث ما يروى بالمعنى فتكون

(٧) لهذا الكلام بنية يبرح إليها في مقلتها

(٨) س ٣٦٤ و ٤٢٢ إعجاز القرآن

ألفاظه أو بعضها لمن أسندت إليه في النقل، ولجواز الرواية بالمعنى لم يستشهد سيويوه وغيره من أئمة المصيرين على النحو واللغة بالحديث (٩) واعتمدوا في ذلك على القرآن وصريح النقل عن العرب. ولو كان التدوين شائعا في الصدر الأول وتيسر لهم أن يدونوا كل ما سمعوه من النبي (ص) بألفاظه وصوغه وبيانه لكان لهذه اللغة شأن غير شامها؛ (ذلك بأن) ألفاظ النبوة يمرها قلب متصل بجلال خالقها، وبمقلها إنسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله»

(٩) ستمثل معنا الأمر في موضعه إن شاء الله

النصرة للكلام صفة محمود أبو رية

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزم بك

سفير مصر في الباكستان

تمن هذا المجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد

وهو يطب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة